

أطروحة مندور

بقلم محمدي العبيدي

بمجريات الحياة الأدبية الضاحجة بتصارع القديم والجديد من تيارات الفكر وتطاحن الشيوخ والشباب ، من الأدباء حول الانتصار لقيم جازت مرحلتها ومثلت دورها وغني عن اعتمادها معلما دالا في شعاب الطريق أو التمكين لقيم بازغة جديدة أكثر مواءمة لمتطلبات العصر وتمثيلا لروحه وتشربا بفحواه ، إنما لا أميل منه نحو الانعطاف صوب العمل الفني أو الأدبي وخصه بأوفر قسط من التدارس الجاد والتقصي النافذ ، ليخلص من كل ذلك إلى الإلام بفكرة وافية عن موضوعه ومضمونه ، مستوثقا من إجراءاته على جادة الفن المطبوع وانطباعه بالإبتداع والعمق والنفاذ واكتنازه بما من شأنه أن يسلف ثمة أثرا ما في حياة المجتمع الذي يعايشه صاحبه ويدرج في ظلاله ، ويفرغ من كل هاته الجولة الطويلة إلى تقييمه بأتم ما يمكن من الإنصاف والمخبة ملمجا إلى غنائه بالجوانب الوضيئة الطيبة واقتاده إلى الخصائص والشئيات الأخرى التي كان يمكن معها أن تستتم له شرائط العمل المكتمل وخصائصه الفذة ، فمندور لا يبغض موهوبا حقا أو يفمطه دالته ويندفع في اللواء به عن طريق الأدب والفن مزهدا له فيهما صارفا به عنهما ، إنما قد يخال أن الثناء على ذوي الكفايات والمواهب إذ يزجي مبرا من التعامل والمث والخداع ، خير ما يمكن التوصل به لاستحثاتهم على متابعة التحصيل والتدريب والعطاء . ولعل من دلائل اثر مندور في حياتنا الأدبية والفكرية ، أنه رغم انفتاحه صوب الثقافة الأوروبية الحديثة واحاطته الوافية بآدابها وفنونها - والفرنسية منها على وجه الخصوص - حيث لم يقف بها عن محصولها من نتاج القرن التاسع عشر والقرن الحالي ، إنما تعدى ذلك إلى الاستقاء من مصادرها الأساسية ومنابعها الأولى ، فألم بالأدب اللاتينية واليونانية القديمة ، لم يجحد غناء الثقافة العربية القديمة بالعمق والانسانية والاصالة ، بل نبه إلى ضرورة التمويل عليها في التجهز لمراس الأدب ، فهي ليست من قبيل المخلفات التي ينبغي أن تحفظ في المتاحف إنما هي عنده من تراث الانسانية العام الباقي على تقادم العصور والاجيال ، فقد مثلت دورها في تنوير العالمين حين خبا لهب الثقافة اليونانية وتوقفت حضارة اليونان عن رفد الانسانية بالنتاج الخلاق من الشعر والفلسفة واللحمة والمسرحية ، وكذا كان لها فضل ربط الماضي المولي بالحاضر المستجد ، كما لم يستبد به الهوى الجامح وتستهيمه العاطفة المندفعة فيشيد بدالة هاته الثقافة على الانسانية على شاكلة مهووسة يشم منها التعصب الاعمى والاندفاع المقيت فيحملها من الاهمية أكثر مما تستحق ويسبغ عليها ما ليس منها بالصميم من السمات والخصائص ، إنما يطبق عليها في معرض التقييم مقاييس عصرها ذلك ، آخذا بنظر الاعتبار مرحلتها الزمنية الفاتنة وموضعها في مدرج التطور الانساني ، ولا يعول على مقاييس عصرنا واصمما اولئك السلف بالانفلاق وضيق الاقن ومحدودية النظرة إلى طبيعة الأشياء على غرار ما يفعل بعض المتعالمين والتمشدين بتفقههم بروائع الادب الغربي المعاصر .

اقول بعد كل هذا الاستطراد ان مندور مات دون ان يستوثق بشكل ما من شهادة معاصريه بقيمة اثره وفرط غناه وعظم دالته عليهم غير انا نحسب انه كان من كبر النفس وسوائية الخلاق واشاره اعطاء الحق من نفسه قبل ان يتطلب الاخرين به ويتشدد في حملهم عليه ، بحيث يلتصق لهم المبررات والمسوغات ولا يندفع في اتهامهم بالوجود

مات محمد مندور الناقد الباحث صاحب الرأي الحر والفكرة الجريئة تماما وعلى غرار ما يموت الأعمار وشرار الخلق . سوى انا غنونا نتمل بالخلود لمندور والديمومة لآثاره الفكرية الشامخة الباذخة بأن تتداولها الأيدي ويقبل عليها الدارسون ويتصفحها طلاب المعرفة والتحصيل . لكن الذي يحز في نفسنا حقيقة ان مندور مات وقد تكون في حلقه غصة وفي صدره آهة حبيسة وثمة لهف وكربة واسف ، ان لم يصادف اكبارا وتقديرا واحتفالا بمؤلفاته ومعطيانه ويعي مدى قيمتها لدى معاصريه أيام كان يدرج بيننا نحن الاحياء ويتنفس كما نتنفس ، والان بعد ان مات مندور تنادت الاقلام للاشادة بما اسلفه من اثر وتركه من ذوي واسداه للامة والوطن من خدمات جلى ودالات عظيمة . ولا ريب ان الاديب الكبير إذ يقطع من العمر امادا طويلة ليس ادخل بالسرور على قلبه واما بالقبطة لوجدانه واعود على فؤاده بالشعور بان مجهوداته الطنلة لم تذهب هباء او تلاش ضياعا او تعصف بها رياح العفاء والتبديد ، إنما هي مناط التقدير وموضع التمويل عليها في التماس الفائدة واجتناء النفع ، نقول ليس ادخل ولا امل واعود على الاديب ذاك بكل هذا من محاولات صادقة لتكريمه واثابته على ما انفق من جهد وبذل من مسمى وقطع من شوط وتحمل ما تحمل من فرط العناء والتعب الفاسي ليفزو افهام النابتة الجديدة بالافكار السامية والمنازع الحرة ويدلهم بها على الطريق اللاب الذي تلزمهم الضرورات الملحة العاجلة بجوسه والتوغل في مغازاته . مات مندور واكاد اجزم انه لم يستدل بدليل ما على مكانته من نفوسنا او يستوثق من شهادتنا الصادقة واعترافنا الجازم الحاسم غير المخاتل او المجامل بقيمة اثره في تطوير حركة النقد الادبي واغنائها ، يتجلى ذلك واضحا في تعريفه بالمصطلحات الغربية الحديثة وتحديد مداليها بالضبط وعلى وجه الدقة والالاح لتاريخ نشوئها وظهورها على مسرح الحياة الفكرية في الغرب والتنويه بمن انطبع نتاجهم الادبي والفني بخصائصها وميزاتها ، امثال الواقعية والطبيعية والرومانسية والرمزية وحتى الوجودية والدادية والسريالية ، كما يظهر في تقييمه المنصف الجاد لالوان شتى من النتاج الحديث شعرا وقصة ومسرحية خلال اكثر من ربع قرن ، فراض المواهب المتفتحة على الابتكار والجدة وتحامى بها عن مواضع العثار والنكوص ، ولا ريب في ان ما يدلي به من الاحكام ويرسله من الحجج كله مشهود له باستيحاء الحقيقة ومواءمة الصواب ومعايشة الصحة والسداد واستواء الملكات على جادة من النضج والخصب والعطاء الثرور ، فأراه على هذا اقمن باحترامه ومراعاه والنزول عليه ، فصاحبه رجل لا يحوم حول حقيقته الصافية ، ثمة مطعن او مفخر ما في التحصيل والسيرة وحتى السلك الشخصي !!

وقلما يتسنى لشخص ما ان يحوز هذا المقدار الطائل من الثقة البالغة برأيه والتمويل - الفائق على توجيهه في اقتفاء الطريق الصحيح نحو شق المهبة وترويض القابلية ، وقلما تسنى ايضا لاديب ان يظفر بهذا الحب العميق الذي محضه به ادباؤنا ومفكرونا في مختلف الحواضر والامصار ، حتى وان تباينوا وايساه في المنزع وتضايروا في المشرب وتناقضوا في الوجاهات والمنطلقات ، فهو ليس على شاكلة اولاء الناقدون الذين جل ما عرفوا من صنعة النقد ان راموه وسيلة للطنن والتجريح وطريقا للغمز والافتئات وسلما يرقون به إلى صدارة التوجيه والتحكم

اللقاء الذي لم يتم

(الى موعد الاسكندرية .. في صيف عام مضى)

لو التقينا قبل ان تميل شمسنا الى الغروب
وقبل ان يسير في نهار عمرنا الشحوب
وترحل الطيور عن اغصاننا .. الى الجنوب
خوفا من الشتاء .. والشتاء عالم رهيب

لو التقينا حينما جئت الي .. من بعيد
والحب في مروج قلبك الرحيب .. طائر سعيد
وباقية من اجمل الازهار .. عطرها جديد
يسكرني .. فينتشي قلبي .. ويطلب المزيد

لو التقينا مثلما قدرت موعد اللقاء
ولم يكن في الباب قفل ليس يدرك النداء
اكان ظلانا معا سيصمدان للضياء ؟
وطيرنا لا يزمع الرحيل .. ان بدأ الشتاء ؟

اكنت تمشين معي - ولست وحدي - في الطريق ؟
اكان نور الفجر يبقى .. والضحي له بريق ؟
اكنت انت يا رفيقتي بقلبك الرقيق
ترضين لذعة الحريق .. دون لذة الحريق ؟

لو التقينا .. غير اننا - بعد - لما نتلق
ولم نعش هذا المدى الا على تفرق
فاوشكت صورة حينا على التمزق
وكيم هفت ضارعا : بحينا ترفقي

شاعرتي : من الموم الآن ؟ انت ام اننا ؟
ام ان حينا الكبير ضاع .. ضاع بيننا
وحيما ضاع .. رجعت الان نكي حينا
يا دمعا .. هل ستعيد حينا .. يا دمعا

مهما يكن فاننا لسنا سوى بشر .. بشر
لا .. بل دمي تحركت .. والخيط في كف القدر
اذا انطلقنا .. فالفضياء هوة ومنحدر
وبعد مصيرنا .. وما لنا منه مفر

ان كان لا يزال لي في قلبك الحاني مكان
فهذه رسالة .. تشتاق مثلها الخسان
كتبها بأدمع .. من الحنين والحنان
فان آتيت .. عاد لي ما قد مضى به الزمان
كانما عمر الفراق لحظة .. او لحظتان
وان آيت .. فالصير ليس لي به يدان
ولم يزل من دمغ قلبي .. دمعة .. او دمعتان

ابراهيم محمد نجما

الحنا قبل قليل الى ان المرحوم مندور كان قد استقى من الثقافة العربية القديمة ، ولعل اخص ما استرشد به من مصادر هاته الثقافة العريقة هو مآثوراتها النقدية سواء تلكم الكتب الباحثة في اسس النقد ومبادئ ونظرياته والاخرى المشتملة على الدراسات التطبيقية المترسمة لمنهج محدد له منطلقه وغايته وكذلك الدراسات التي تعظم فيها حصة التاريخ ويضؤل فيها جانب النقد اللامح ، وتعتمد اكثر ما تعتمد على الاستطراد والانسياب في سرد السير وتبيان الاطوار والميول وحتى الحوادث الشخصية ، اذ تفتني بالاملاح الى المصادر الموثوقة التي استقت منها تلكم الاخبار الشوارد مما قد يورط في الشعور بالاملال والاحساس بالسأم من القلوب على مطالعة تلكم الدراسات المستقصية بالنسبة للناطقة الجديدة التي لم تعد تقوى على الصبر والريث والجديفة في التدارس والتحصيل الادبي ، انما قد تؤثر الخطف والمجالة في قراءة النتاج الضحل الذي لا يحوج استيعابه وتشرب فحواه الى مزيد من كد الذهن وشق خاطر ، او ان الناطقة الجديدة قد لا تمتلك فرط مطولة الجيل السابق على الصبر في اجتلاء النصوص القديمة دون ان يعترها الضجر وتحس بالاملال فتدعها عنها جانبا زاهدة فيها قاطنة منها . يتبدى على هذا ان استاذنا الفقيده كان قد عكف على مآثور العرب النقدي واسترشد منه وآلم بجماع موحياته لوجهاته وكافة اصوله وفروعه ، واحاط بشكل شمولي نفاذ بخلاصة وافية عن دالات اعلامه وافذاذه ، ووعى جيدا ما كان منه مبتدعا جديدا ، وما كان مرتبطا بمآتي الثقافتين اليونانية والفارسية التي امتزج بهما العرب ابان قيام دولتهم الاسلامية وانصلوا بمآثوراتها عن طريق الترجمة والنقل ، وكان ان افرغ جماع تحصيله منه بكتاب بدع في بابيه هو « النقد المنهجي عند العرب » تقدم به في استهلاله الاربعينات للحصول على شهادة الدكتوراه بعد فقوله من فرنسا بشهادات اخر منها ما يمت الى التشريع المالي والاقتصاد السياسي ومنها ما يمس الاداب اليونانية والفرنسية ، وكان كل تلكم الشهادات مجتمعة لم تكن تعادل بحسب العرف الشائع المتداول الدكتوراه التي تكفل لحائزها الانخراط في رعي اساتذة الجامعات ، وكذا خال البعض ان هاته الشهادة العليا قد لا تكلف متبفيها اكثر من الانصراف لتأليف كتاب والاستغراق في جمع مادته والتأليف بين عناصرها واجزائها ، والتهيؤ لخوض امتحان فيها ، يعول اكثر ما يعول على المناقشة المستأنية والجدل المستفيض يبتدره بهما الاساتذة المتحنون ليشهدوا له من بعد بجدارة الامكان ويؤمنوا على اهليته لحيازة اللقب الفضايف ، وكذا كثر عندنا اصحاب - الدكتوراة ! - وتعددت الاطروحات المصنفة - المحفوظة ! - وما اطروحة محمد مندور من هذا الصنف الشائع ، اذ هي ليست ببنت النقل الطائل والافتباس الكثير حيث لا ايماء الى المراجع الاساسية والامح اليها وتعريف بها ، انما هي نتاج الكد والثابرة وثمره الجهد الخلاق والعمل المصني وحصيلة الاستغراق في اجتلاء المآثور العريق وتفهمه واستيعابه ، بعناية فائقة وذوق رهيف واستقصاء متأن وقدرة عجيبة على التمييز بين الداليل والاحكام وترجيح ارباء هذه على تلك في الدقة والنصاعة والاحكام . وقد لا يضيرها او يشين بها الاقتباس الطائل المنوه عن مواضعه من صحائف الانار الاصيلة بقصد تمحيصه وتدارسه واجتلاء غنائه من الصحة والسداد واحتفاله بالقيم الفنية وتأمينه عليها ، فقد ترجح حصة النتاج الشخصي الخلاق فيها على حصة النقل والاقتباس . واشهد ان اطروحة مندور قد تفتني الدارسين عن مراجعة تلكم الانار القديمة التي وان تباينت في الموحيات والايحاءات وتفاوتت في الاحكام والمقاييس التي عول عليها النقد القديم واقام عندها طويلا وتفايرت في الانطباعات والمفاهيم من حين لآخر ، بحسب تباين ثقافة الناقدن انفسهم وتفاوتت نظرتهم وتفاير ادواقهم الفنية ، فهي قد تتشابه وتتماثل الى حد بعيد في طريقة السبك واسلوب التادية وجادة التعبير ، وكان انتفسى البسم الشخصي في كتابات ذويها ، فعبارة - السئمة على الصفحة ٧٨ -

أطروحة مندور

— تمة المنشور على الصفحة ٧ —

من قبيل هذا الحد من الشعور بالتقدير والاعتزاز حيال بعض الاعلام ما يتركه في نفس القارئ ، القسم الخاص بتقييمه لصاحب المثل السائر ، ابي ضياء بن الاثير ، المعجب بنفسه التياه بغناء ملكاته ونسوج كفاياته ، فيجلوه لنا الدكتور مندور باحثا بلاغيا طفت عنده الروح النظرية التي تلزم بالتعليم والتقنين مقتفيا في هذا النهج خطى ابي هلال العسكري ، في الاستقراء والاستقصاء ، بينما قد تكون الصيغة الفنية اسمى من ان تخضع للقواعد والاصول غير ان ذلك لا يمنع الدكتور محمد مندور من ان يسجل لابن الاثير دالة الابتداع والوضع على خلاف ابن رشيق صاحب العمدة الذي قال عنه ابن خلدون في مقدمته : « ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة — يعني النقد — واعطاهما حقها ولم يكتب احد قبله ولا بعده مثله » . فيبين عنه انه يفتقد الشخصية المتميزة ومراعاة المنهج النقدي الخاص . فهو لا يعدو ان يكون — كصنوه الثعالبي صاحب اليتيمة — جامعا مصنفا للمعلومات الوفيرة التي تخص الادب والنقد وعلوم العربية ، الا انه كان حريبا بالرحوم مندور ان يشيد بتقني ابيسن الاثير لعوامل واسباب انتفاء عنصر الملحمة في الادب العربي القديم التي قد تنحصر في تقييد القصيدة العربية — انذاك ! — بالروي الواحد والقفائية الرتيبة واحتفاظها بالرنة المدوية والنموسق الخطابي ، دون ان تتعداهما اكثر الى الانغلات من الغنائية التي يجسد فيها الشاعر اغراضه الذاتية واهواء نفسه في سرائه وصرائه . كما قد فاته ان يفري بتلميذ الماح ابن رشيق الى فكرة اشباع المعنى ومعاودة صوغه كرة بعد اخرى حتى يحيط بشيائه واطرافه كافة ، كما يتجلى ذلك عند ابيسن الرومي الذي توأخرت لقصيدته الى حد ما وحدتها العضوية وتأت لمفرداته والفاظه مهمتها الوظيفية من بنائها الفني . الا ان ما يدل به في عاطفة المقت والاستهجان لطريقة العسكري الجامدة وبديته من نفاذ وجف عن منهج العقيم وحنق على الضرر البالغ الذي اسلفته البلاغة على الادب العربي اذ آلت به على الصنعة والتدبيج والشعوذة العقيمة ، كل ذلك قد صد به عن الشهادة والاقرار لابن الاثير وابن رشيق بالاطلاع والتولي عن بعض الاحكام والمبادئ النقدية ، ما دام الاول قد تورط في التقسيم وانجر للتطبيقات المنطقية والقواعد الشكلية ، وما دام الثاني ايضا قد جهد في النقل عن غيره كالحاغي واضرابه .

نخلص من كل ذلك الى ان استقراءاته التي يتوسل بها بتدقيق موضوعي وتدارس جاد وذوق مرهف واخلاص عميق نحو لفظة العرب وآدابها وفنونها ، يلزم ذلك ويرادفه بطبيعة الحال طريقة نافذة في التعبير والتأدية تحكي عن اخلاص الباحث لرسالته وشعوره بأهمية موضوعه واحساسه الحاد بجوداه وقيمه فسي امكان تصحيح المسلمات السائدة واستبعاد القواعد الجامدة المترسخة في حياتنا الادبية والفكرية ، قد لا يعني فارقته من الوقوع تحت ذلك الشعور الجارف بالحد من التقدير البالغ الذي اعتدنا ان نكنه حيال بعض الاعلام بالنقاد ، في ادبنا العربي القديم ، قبل ان نطالع كتبهم ، انما نساوق لذلك بتأثير توجيه ساذج يند عن اديب مسموع الكلمة مرعي المكان او بتأثير نصح رشيد يصدر عن اخر لتدارس هذا الاثر النقدي او ذاك والتعويل عليه ، — وقد يتم هذا ويتنافى الشعور بأهميته والاحساس بخطرته بتأثير الإيحاء عادة — في الايفاء على جادة التحصيل الطائل والثقافة الفنية ، وكثيرا ما يرجى التوجيه والنصح مجردين من ادنى تحذير وتوصية ، بضرورة التدارس المستناني والقراءة المتعنة المحترسة من التامين على صحة كل ما سطره اولئك النقاد وسجلوه وتولوا عنه من الاحكام والمسلمات والقيم والمبادئ والتسليم بمقوليته ورجحان نصيبه من الاصاله .

ولو استبعدنا ذلك من محصلتنا من كتاب النقد المنهجي عند العرب ، لصار في وسعنا ان نحيط بتحصيل نافذ يتعلق باوائل النقاد الذين قد تحسب محاولاتهم على الدراسة الادبية والبحث التاريخي قبل ان تسلك في قبيل النقد الذي هو بحسب تعريف هذا الرائد ، فن دراسة الاساليب وتحليل النصوص ، فمة تعريف بابن سلام وابسن

يرصفها الاحدي لا تتميز من ناحية النظم والترتيب بين الالفاظ واجرائها على قاعدة ما عن عبارة الجرجاني او ابن رشيق ، فلمندور دالة تقديم خلاصة وافية لمأثور كل من اولاء وتحليل طريقته ومنهجه في النقد وتحديد موضعه من النساقلين المقتبسين المعولين على مجهود سابقهم او في صف المبتدعين المنهجيين المترسمين لاسس معينة وقواعد متميزة ، ويعدو ذلك الى ازجاء مؤخذانه وانتقاداته الموضوعية حيال كل منهم . ناسبا به الى الإنطلاق من النظر الموضوعي وتحليله بروح الصدق والانصاف واستهدائه بالثقافة الرشيدة والنفاذ العميق ، او سالكا به في عداد ضيقي الافق من المترجمين الجامدين الذين تؤثر في احكامهم عصبية غلاظ واهواء مقيتة وعواطف جماع . ولهذه الاطروحة الفذة دالة تصحيح كثير من المسلمات والاحكام التي شاعت في حياتنا الادبية ردحا من الزمن طويلا ، بعون واسهام جيل الرواد منذ مطالع القرن العشرين . فالدكتور طه حسين كثيرا ما يوصي خلل محاضراته ودراساته واقواله المزجاة لكتبة المقالات الصحفية ، ان لا غناء لنسابة الجيل الجديد من تدارس نقد الشعر لقدماء بن جعفر ، واذكر اني اصبت بمثل العدوى السريعة فالزمت نفسي بتدارس — نقد الشعر — هذا حاسبا اني ساؤفي على التحصيل الطائل والمعرفة الوفيرة واراد منه عن ذوق مصقول ونظر نافذ عميق ، فما فرغت منه الا بجملته تحدييات وتعريفات بقواعد البلاغة واسسها ، من البديع وما ينحصر فيه من الجنس والتورية والطباق وقد يتعداه الى الاستمارة ايضا . ومثل هذه التعريفات والتحدييات قد يقرؤها طلبة الدراسة الاعدادية في كتبهم المقررة ، غير ان ما يضمنه الدكتور محمد مندور في اطروحته من فصل خاص بقدامة بن جعفر يفري القارئ المتذوق الذي لا يعتد بالنايس الشكلية ويستهدف اول ما يستهدف من الاممال الفنية اتسامها بالصدق وانطباعها على الصياغة الفنية بالتقليل من دالة قدامة بن جعفر على النقد الادبي عند العرب وانهامه بالجمود وضيق العطف والزهادة في التعويل على تلك المبادئ العامة التي اودعها كتابه ، حيث لم يعن بالنقد التطبيقي المتميز بدراسة الاساليب وتحليل النصوص ، فقد التزم بالمنطق الشكلي الجامد وافترض تقسيمات شتى احتدى فيها حذر ارسطو في الركون للتجرد والانفصال عن الواقع . ومن هنا كان لشرب الدكتور طه حسين بالثقافة اليونانية وايناره منها لمنطق ارسطو بعض الاثر في الاعادة لتداول الكتاب ذا بين ايدي القراء والدارسين ، ومثل ما ينجر اليه القارئ بتأثير مطالعة فصل الدكتور مندور عن قدامة من الوقوع تحت هذا الشعور بالازراء ، فقد يعتريه كذلك حيال ابي هلال العسكري مؤلف سر الصناعتين ، اذ اعتبر استاذنا الراحل ظهوره في القرن الرابع الهجري ، بمثابة نكسة اصابت النقد العربي وحياء لطريقة قدامة الجامدة ، حيث عاد به الى البلاغة مجددا ، فشرع الكتاب ثانية بتأثير شيوع المنطق اليوناني الذي يفترض المقدمات ويعني باستخلاص النتائج منها ، الى التورط في الافتعال والتزيق الصفيقين مترسمين قواعد موضوعة سلفا ، لا تتورع عن تحديد ميزات وخصائص وشرائط كافة الاغراض والانواع الابيية المعروفة انذاك . ومنها وجوه النظم التي يتمرس بمزاولتها الشعراء عادة . وكذا يسجل استاذنا علي ابي هلال تبعه « جفاف ينابيع الادب وضياح الاحاسيس والافكار منه وغلبة اللفظية والتكلف » . وكذا يقرن ابا هلال الى قدامة ويجمع بينهما على صعيد واحد ، من افتراض التقسيمات الجامدة والتطبيقات الشكلية التي تلوي بمحتذيتها عن العفوية المحضة وترتد بها عن طريق التفافية والطواعية ومزاولة الفن الصحيح المنسم بالصياغة الجمالية لا « النقص اللفظي » . وقد يكون

قنية وابن المعتز ، فالأول تميز بعدم القدرة على التعليل والاستدلال وتورط في أجزاء العبارات الغامضة التي تحفل بالأحكام الدقيقة المحددة المقبولة . لقد كان السباق الى محاولة تقسيم الشعراء الى طبقات واعتماده كثرة المنظوم وتعدد الاغراض والجودة على التوالي اسما للمفاضلة والموازنة واشترط للناقد الدربة والممارسة والبراعة فسي تحقيق النصوص وتفسير الظواهر الادبية ، مما يعد من جملة اوليات الاسس النظرية للنقد ، حتى اذا اوفى بنا على ابن قتيبة ألمنا معه باكتشافه وتحديدته للشعر المطبوع والتكلف وحيدته عن التفرقة بين التثقيف والتكلف فالطبع وحده لا يكفي ، وما كل شعر عني بصقله وتجويدته متكلف كذلك ، والشعر على اي حال « صناعة وتجويد لفظي وجهد وارادة وطبع » ، وزا قد لا يورط في الانفلاق والافتعال او يجر الى الاغراق في التكلف والمخاريق اللفظية ، وزهير والحطيئة ، هما بعد غير ابي تمام ومسلم بن الوليد ، وبالنسبة لابن المعتز ، فاستاذنا يؤثر المهادرة في محاسبهه وانتقاده على خلاف صنيعة نحو قدامة « فسليل الخلفاء رغم انه انجر ايضا الى تقديم القواعد العامة الا انه يؤمن على مجهوده في البحث عنها وتحديد مواضعها من آي القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب عامة ، فدلل بذلك على المنحى التاريخي في النقد ومفاد ذلك ان الملح ابن المعتز الى ما احتفل به الشعر العربي الجاهلي والاسلامي من اوجه البديع بشكل عفوي لا اثر للصنعة والكد فيه على غير مالوف ابي تمام من التكلف والسرف والاغراق .

وليس وكذ المقال ذا ان يعرض بالتحليل لكل ما اندرج في الاطروحة الفذة واشتملت عليه من التعريف والتحديد ، غير انا لا نرى اخلق بالتنازل اليسير من تحليله الجاد العميق لكتابي الموازنة بين الطائيين للحسين بن بشر الامدي المتوفي عام ٢٧١هـ . والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفي عام ٢٩٢هـ . فهما عنده كتابان منهجيان مترسمان قواعد واصولا نقدية معينة .

فقد يدخل الاول ضمن ما تعارفنا على تسميته فسي دراسنا الحديثة بالنقد المقارن ، بينما يدخل الثاني في حيز الانتصاف للمتنبي من افتتات سابق عليه وجاجة في ذمه من قبل ناقدين لم يلزموا ذواتهم بالنظر الموضوعي والتقصي الجاد وتقليب جنب السداد والتبصر وحتى العدل والرحمة على جانب الهوس والاندفاع والامعان في التخرض والتجني . وقد شهد لاول بمنهجيته وموضوعيته وأمن على ريادته للنقد الموضوعي والمقارنة بين بيت وآخر ومعنى وآخر ، وتصفية السرائر الشائع بترجيح شاعر على آخر بشكل اعتباطي ومن وجهة عامة مطلقة ، مستقريا معرفته بما قيل قبله وشاع من الاحكام والمبادئ والحاحه بوجهات النظر المتباينة وفهمه الدقيق لها وتشربه بفحواها واشاره العدل بينها قبل ان يخض احداها بترجيحه وتأيينه على صحتها .

وخلل هذا التحليل الدقيق يسترعي نظير القارئ المتفحص خطرات هذا الرائد وقلذاته النقدية التي ينثرها عبر تحليله واستقصائه بشكل عفوي وبلا ادنى مجهود او افتعال ، وقد لا يظن لها خلل السياق الا بعد مزيد من التمهل والتربث في القراءة « فانت تحيط علما منه بميزات الشعر الصحيح التي قد تنحصر بحسن المواتاة وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وقد تلم كذلك بتدليله على اهمية الصياغة في الادب باذ يقرن رأي الامدي القائل : « ان حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كانه قد احدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد » ، الى رأي معظم نقاد أوروبا اليوم الذين يرون « ان امر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة الى الصياغة » ، فذا كشف رائع خطير ليس ادل منه على دالة العرب في النقد وسبقهم للنقاد الاوروبيين المعاصرين في اجتلاء اهمية الصياغة في الادب ، واستاذنا لا يدع هذا النص المنسوب للامدي دون ان يوسع فيه ويفصل حوله ويضيف اليه ، فيستنبط منه ان اللغة فسي الادب ليست وسيلة خادمة للفكر والاحساس فحسب بل هي الى جانب هذه الوظيفة الاساسية غاية في ذاتها ، والكاتب او الشاعر الماهر هو من

يفطن الى هذه الحقيقة ويكون من حسن الذوق وسلامة الحس بحيث يقيم النسب الدقيقة بين اللغة كوسيلة واللفة كفاية في الادب . فلا يسرف في اعتبارها وسيلة لانه يحرم بذلك من عناصرها فسي التأثير عناصر التصوير وعناصر الموسيقى ، وكذلك يحذر من ان ينظر اليها كفاية فيأتي ابنه وشعره وقد غلبت عليه اللفظية وخلا من كل مادة انسانية فكرا واحساسا . والنقاد لا يدل في مسألة كهذه على حدود وليس في قدرة احد ان يعلم الاخر متى ينتهي عمل الوسيلة في اللغة ومتى يبدأ عمل الغاية . ومشكلة كهذه لا يمكن ان تحل نظريا وانما يتكسر الانسان احساسا صادقا بحدودها بكثرة المران على النقد والنظر في مؤلفات كبار الكتاب والشعراء الذين نجحوا في هذا السبيل » . ومثل هذا الاستنتاج القيم يستحق اعتباره نصا نظريا نقديا هاما يمكن الانطلاق منه والركون اليه في تقييم الانسار الادبية وارسال الاحكام النصفة بصدها .

واذ نعدو ذلك الى القسم الخاص بالمتنبي ، نلفيه يستعرض عناصر ووقائع الخصومة حول المتنبي ، ولا ريب فالمتنبي شاعر عظيم كان انسى حل وانى سار يستجد حول شاعريته جعل عفيف ونقاش حاد بين معجب منحاز ومستهجن مصروف بنفسه عنه ، فكن له انصار وناقسون ، فسي حلب والفسطاط وبغداد وارجان ، واستاذنا اذ يلم بدقائق هذه الخصومة المحتدمة لا ينسب بها الى الاختلاف حول مذهب شعري بل هي في شرعه (حول شاعر اصيل) آدته مفارقات الحياة ونالت منه طوارقها القاسية فتركت في اهابه جراحا عميقة بعد ان جاب المربع والامصار مغالبا فشله وخيبته موطننا ذاته على معاودة السعي في سبيل مطمحه وبغيته . وكذا تتعرف على اسماء الحامي والصاحب بن عباد وابن وكيع وابسن خزابه وابن لنكنك ممن حاولوا الاستلال من المتنبي والقهر من شاعريته . كما يستعرض الخصومة التي دارت حول المحدثين : طه حسين واحمد امين وعبد الوهاب عزام ، وهنا تتجلى براءته في الاستقصاء ودقته في الاستنتاج ونفاذ نظرتة في القبلة ، ولا سيما خلال تصديده لمناقشة المرحوم احمد امين حول نفيه لتأثر المتنبي بمنطق المتكلمين والفلاسفة وكل هذا الاستعراض لاطراف الخصومة قد يعد بمثابة تقديم لتحليله الجاد لكتاب الوساطة ، ومؤلفه قاض نزيه ، وكذا ابان صاحب النقد المنهجي عن اثر المهنة في تكييف احكامه في النقد ، فهو ابعد عن الجور والتحامل وادنى الى التحلي بالانصاف والبروءة والاحتكام الى الذوق المرفه والمنهجية الدربة وحتى المعرفة بعناصر الخلق الفني ، ولعل اخص ما سجله للجرجاني من الدالة النقدية هو معرفته الذكية بعلاقة الاسلوب بصاحبه ، على غرار ما تعارفنا على تسميته والاصطلاح عليه في ايامنا هذه من ان الاسلوب هو الرجل ، فهذه القولة التي باتت من الاسام بالصحة والواقعية نرى ان الجرجاني سبق بها النقاد المحدثين من العرب والافرنج ، على ايامنا هذه ، اذ يقول :

« ان القوم يختلفون في الاسلوب وتباين فيه احوالهم فيرق شعر احدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ احدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطياع وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وانت تجد ذلك ظاهرا في اهل عصرك وابناء زمانك . وترى الجافي الجلف منهم كسر الالفاظ معقد الكلام وعز الخطاب ، حتى انك ربما وجدت الفاظه فسي صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته » .

لم يكن وكذا حقيقة من هذه المقالة اليسيرة استعراض موضوعات اطروحة استاذنا الراحل بالتفصيل ، والتقصي في عناصر مادتها الوافية ومكونات موضوعها الهام ، والابانة عن سمات طريقتة في البحث والتحليل وارسال الاحكام الموضوعية انما رمنا بها كلمة متواضعة تكون بمثابة دعمة وفاء لربي اجيالنا الادبية وتمهدها بالرعي والنماء وحسن التوجيه، لكننا جرننا الاستطراد ، فلما الى التطويل بعض الشيء ، وكان من المؤمل ان نقتصد في القول ، ولا مرء فمندوز عزيز غال ودالته فسي التنبيه الى عراقة التراث النقدي واصالته اخرى بالثمين والاحتفال .

مهدي العبيدي

بغداد